إشكاليَّة الأخلاق والدين

أُثِرَ عن حكيم من الأقدمين إسمه أفلاطون -ظهر قبل المسيح عليه السلام بأربعة قرون- أنه قال: "لكي تحيا حياة حقيقية وتفكّر تفكيرًا سليما لا بد أن تكون مستعدّا دائما للموت" كلام عجيب غير مألوف لأسماعنا اليوم.. ولكن الأعجب منه أنه قال: "إن رجل الأخلاق لا يهاب الموت" ،فلما سُئِلَ: ولِمَ يجب على رجل الأخلاق أن يكون دائما على استعداد للموت..؟! ولماذا يوطّن إنسان نفسه على التعايش مع هذه الحقيقة الموجعة .. يجيب الحكيم: " لأن الشر هو السلطة الحقيقية التي تتحكم في هذا العالم؛ والأخلاق والسلطة الباطشة لا يمتزجان .. إنهما دائما في عداء وخصام".

وتفسير ذلك كما فهمت هو أن رجل السلطة الباطشة يؤمن بأن استئصال القلّة العنيدة من البشرالمستمسكين بمبادئ الأخلاق ولا يحيدون عنها في سلوكهم وأفكارهم، ينتظرون من صاحب السلطان أن يحذو حذوهم فهو بدون الأخلاق يستحيل أن يكون عادلا أو مصلحًا .. ولأنه شرير يميل دائمًا للتخلص من هذه النخبة ، ويرى أن اسئصالهم هو الضمان الوحيد والأكيد لاستمرار سلطانه .. وهنا يقع الصدام الأبدي بين الحاكم الطاغية وبين النخبة الملتزمة بمبادئ الأخلاق .. فرجل الأخلاق لا يمكن أن يتصور الحياة خالية من العدالة .. فالعدالة قرينة الحرية والكرامة الإنسانية .. ومن هذه الفكرة يستمد قوّته وشجاعته ولا يعبأ بأي تضحية أو تنكيل يأتيه من جانب أي سلطة متجبّرة.

يلاحظ فيلسوف الإسلام على عزت بيجوفيتش في هذا الكلام القديم قيمة نظرية عالية ولكن ينقصه الجانب العملي والتاريخى؛ فلم يكشف التاريخ لنا إلا قلّة ضئيلة من هذه النماذج البشرية التي ضحت بحياتها على هذا النحو المثالي المجرد .. وحتى في هذه الحالات النادرة كان الدين هو الظهير الخفي وراء مواقف التضحية بالنفس ؛ لذلك رأي أن الدين والأخلاق متلاحمان في عقل الإنسان من الأزل ؛ فردًا كان أو جماعة ..

ويمكنك أن تعود ، بهذا التلاحم الخفيّ إلى أول جريمة قتل وقعت في تاريخ البشرية، بين أخ وأخيه من أبناء آدم عليه السلام ؛ حيث سوّلت نفس أحدهما قتل أخيه حِقْدًا منه على أن تقبّل الله منه قربانه ، من دونه ؛ فلم يخضع لمشيئة الله وارتكب جريمته الشنعاء .. فوقع في حيرة هائلة واشتعل في وجدانه شعور خفي من الألم لم يدرك كنهه، وقد لخص القرآن هذه الواقعة المأساوية في بضع آيات من سورة المائدة ، عبّر بها عن القصة كلها .. تقول:

{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ

الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ}.

وهكذا رأينا كيف وسْوَسَ الشيطان للإنسان ، وهوّن عليه ارتكاب الجريمة ، ولكن شاءت رحمة الله أن يبعث فيه الضمير ليستشعر الندم ويتذوّق مرارته ليرتدع عن جريمة القتل ، وليكون عبرة لمن يأتي من بعده . مصدر هذه المشاعر إذن إلهيّ ؛ وكانت هذه بدايات التجربة الدينية/الأخلاقية في تاريخ الإنسان على الأرض..

فالأخلاق والدين متشابكان منذ بداية حياة الإنسان على هذا الكوكب .. فلا توجد أخلاق حقيقية بدون دين ، ولا دين صحيح بلا أخلاق. ويبدو أن شياطين الإنس من الطُّغاة ، قد أدركوا هذه الحقيقة في زمن لاحق فعملوا بكل وسعهم على إفساد الدين وإفساد الأخلاق معًا ، حتى يسهل عليهم كبح زمام البشر واستعبادهم .. ولكي يموّهوا عليهم مقاصدهم الشريرة ابتدعوا برامج للتعليم والتربية .. لتحقيق هذه الغاية.

فَتَحْتَ تأثير موجة مصطنعة من التخويف من ظهور اتجاهات إسلامية [إرهابية بزعمهم]، فُرِضَ على وزارة التعليم في مصر برامج دراسية من قِبل مستشارين أمريكيين وصهاينة مقيمين وزائرين .. برامج خالية من أي توجيه ديني حقيقي ؛ حيث استبدِلَتْ كتب المطالعة المدرسية بكتب أخرى حُذِفَتْ منها الآيات القرآنية .. واخترعوا بدلا من كتب الدين كتبا أخرى لا دين فيها .. ولا أحب أن أخوض في تفاصيل هذا الموضوع .. لسبب واضح جدا سبق أن أشرت إليه في كتابات سابقة وهو أن قضية التعليم العام في مصر قد طويت صفحتها بالكامل ولا يمكن الحديث عنها الآن ، فقد انهار النظام التعليمي تماما ولم يعد أمامنا إلا هياكل فارغة متهرّئة أو أطلال من نظام مدمّر كان اسمه التعليم العام في مصر .. فقد حلت مكانه مؤسسة غير رسمية هي مؤسسة الدروس الخصوصية .. ومؤسسة أخرى اسمها التعليم الخاص [محلّى وأجنبيّ]- يغلب عليه الاتجاهات التجارية والتبشيرية بالدرجة الأولى .. والهدف النهائي هو : قصْر التعليم على الأغنياء والقادرين فقط ولا شيء للفقراء وغير القادرين .. ومن المؤكد أن هذه المنظومات التعليمية لا يمكن أن تأخذ مأخذ الجدّ قضايا الوطنية والتربية والأخلاق في هذا الوطن التعيس بقياداته الجاهلة والعميلة ؛ التي لا تعرف لها انتماء ولا اتجاها ولا إرادة .. اللهم إلا إرادة السيد الأجنبي الذي يملي خطته و يفرض رؤيته الاستعمارية لإفساد الأجيال فى هذه الأمة..

لعلّ بيجوفيتش كان يستشرف مستقبل المجتمعات المسلمة تحت الآلة الاستعمارية ، فأراد أن ينبهنا إلى حقيقة لا يجب التفريط فيها بأي حال- وهي تتصل بتلك الصلة العضوية بين الدين والأخلاق إذ يقول: " لا يمكن بناء الأخلاق إلا على الدين .. ثم يتعرّض لإشكالية جوهرية في طبيعة هذه العلاقة قد تؤدي إلى سوء الفهم أو ارتباك الفهم عند الذين يلاحظون السلوك الخلقي في الممارسات العملية اليومية .. فقد

يصادفون رجال دين لا أخلاق لهم .. أو أناس يسلكون سلوكا أخلاقيا وهم غير ملتزمين دينيا ..
ولا ينكر علي عزت بيجوفيتش هذه الظاهرة الاجتماعية .. ولكنه يفسرها لنا فيقول: علينا أن نفهم حقيقة أساسية في العلاقة بين الأخلاق والدين .. فرغم أنهما متلازمان متساندان إلا أنهما ليسا شيئا واحدا .. فالأخلاق كمبدأ لا يمكن وجودها بغير دين .. أما الأخلاق كممارسة أو حالة معينة من السلوك فإنها لا تعتمد بطريق مباشر على الدين..

ويضرب على ذلك مثالا بالثورات التي شهدتها البشرية بصرف النظر عن مصدرها الأيديولوجي .. في كل هذه الثورات كان يسيطر على المنخرطين فيها الحماس ومشاعر الأخوة والإقبال على التضحية بالنفس والشجاعة والجرأة في مواجهة المخاطر والأهوال .. وكل هذه المشاعر والقيم مصدرها الحقيقي هو دين ما .. دين يؤمن بالغيب والحياة الآخرة .. ولا يمكن أن تصدر من أي حقيقة مادية أو اجتماعية أخرى .. فلو توقف الإنسان لحظة ليفكر: "لماذا أُقبل على التضحية بحياتي وأنا لا أملك في هذه الدنيا إلا حياة واحدة !؟ وليس هناك حياة أخرى أُواصل وجودى فيها بعد الموت ؟!- لو توقف إنسان ليسأل نفسه هذا السؤال لسارع بالخرج من المعركة هربا من الموت الذي ينتهي على عتبته كل أمل في حياة أخري بعده ..

ويفصِّل لنا بيجوفيتش هذه النقطة فيقول: " يؤدي الإلحاد حتما إلى إنكار الأخلاق .. وذلك لأن أي بعث أخلاقي حقيقي يبدأ دائما بيقظة دينية .. فالأخلاق على حد قوله: إنما هي دين تحوّل إلى قواعد للسلوك ؛ يعني تحول إلى مواقف إنسانية تجاه الآخرين .. فإذا كان لزاما علينا أن نؤدي واجبنا الأخلاقي - بصرف النظر عما يواجهنا من مصاعب أو مخاطر - فإن هذه الدعوة لا يمكن تبريرها إذا كانت حياتنا الدنيا هي الحياة الوحيدة .. وهنا تبرز نقطة الانطلاق لكل من الدين والأخلاق ..

وتأمل في التعبير القرآني الذى يربط دائما بين الإيمان والعمل الصالح: "... الذين آمنوا وعملوا الصالحات..." إنها تتكرر بصيغتها أو بمعناها في القرآن أكثر من خمسين مرة ، كأنما تؤكد لنا ضرورة توحيد أمرين اعتاد الناس على الفصل بينهما.. إن هذه الآية تعبّر عن الفرق بين الدين (الإيمان) وبين الأخلاق (عمل الصالحات) كما تأمر في الوقت نفسه بضرورة أن يسير الاثنان معًا جنبا إلى جنب ..

ثم يكشف لنا القرآن عن علاقة أخرى عكسية بين الأخلاق والدين، فيوجه نظرنا إلى أن الممارسة الأخلاقية قد تكون حافزا قويا على التدين: { لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبّون} .. فالآية هنا لا تقول: "آمن لتصبح خيِّرًا" وإنما على العكس تقول: "إفعل الخير لتزداد إيمانًا" . وفي هذه النقطة نرى إجابة على سؤال : كيف يمكن للإنسان أن يقوّي إيمانه؟ والإجابة هي : واظب على فعل الخيرات لوجه الله تقترب من الله ويربو إيمانك ...

وهكذا يمضى بيجوفيتش ليعمّق فكرته فى هذا الإطار فُيقَدّم لنا نماذج من الخبرة العملية في عالم الأخلاق .. حيث نرى كثيرًا من الأمثلة على أخلاقية أناس لا يؤمنون بالله حق الإيمان .. فليس في الأمر ثبات دائم ، بل يوجد انفصام بين العقيدة الاسمية المعلنة وبين سلوك صاحبها .. ومن الناحية الأخرى نجد أناسا مُتَمَسِّكين بالدين تَمَسُّكا ظاهريًّا شديدًا بل قد يكونون من العاملين في االحقل الديني ، ومع ذلك لا تجد سلوكهم يختلف في شيء عن سلوك الماديين العتاة ، والعكس أيضاً صحيح : فهناك أناس منسوبون إلى التفكير المادِّي ومع ذلك يتمتعون بإخلاص شديد ومستعدون للمعاناة بل للنضال من أجل الآخرين . من هذا التشوُّش وعَدَمِ الثبات تنشأ الكوميديا العبثية فَتُحَيِّرُ عقول المفكرين الجادين ، حتى أكثرهم استنارة .

ليست هناك إذن علاقةٌ تلقائية بين عقيدتنا وسلوكنا ، فسلوكنا ليس بالضرورة من اختيارنا الواعي ولا هو قاصر عليه .. إنه على الأرجح نتيجة التنشئة والمواقف التي تشكَّلت في مرحلة الطفولة ، أكثر منه نتيجة للمعتقدات الفلسفية والسياسية الواعية التي تأتي في مرحلة متأخِّرة من مراحل العمر ؛ فإذا تربّى شخصٌ ما فى طفولته على أن يحترم كبارَ السنِّ وأن يحافظَ على كلمته، وأن يحكمَ على الناس بصفاتهم وليس بمظهرهم ، وأن يُحِبَّ الآخرين ويساعدهم ، وأن يقولَ الصدق ، وأن يكره النفاق وأن يكون إنسانًا بسيطًا أَبِيًّا .. إذا نشأ على هذه الأخلاق الحميدة فستكون هي صفاته الشخصية ، بصرف النظر عن أفكاره السياسية الأخيرة أو فلسفته الاسمية التي يعتنقها.
هذه الأخلاقيات -إذا نظرنا إليها نظرة تحليلية- مدينة للدين ومنقولة منه .. ومعنى ذلك أن التعليم والتربية قد استطاعا أن ينقلا إلينا نظرات وفضائل دينية أصيلة معينة في ما يتصلُ بالعلاقة بين الإنسان والإنسان ، ولكنه لم ينقلْ معها الدينَ الذي هو مصدرُ هذه الأخلاقيات .
في هذه الحالة لا توجدُ إلا خطوة واحدة بين التخلِّي عن هذا الدين والتخلِّي عن أخلاقياته .. ولكن بعض الناس لا يُقْدِمُون على هذه الخطوة ، ومِن ثَمَّ يظلُّون منقسمين بين دينٍ لا يَتَّبِعُونه وأخلاقيات هذا الدين التي يستمرُّون في اتباعها ، برغم أنهم لا يُؤمِنُون بالأساس الذي أُقِيمَتْ عليه هذه الأخلاق .

ومن الناحية التاريخية وجدنا أنه لا يُمْكِنُ بناء نظام أخلاقي في أي مجتمع على الإلحاد، والمثال على ذلك ما حَدَثَ في النظام الشيوعيّ بالاتحاد السوفيتي ، فلكي يُؤَسِّس الماركسيون مجتمعًا ويحافظوا على وجوده واستمراره كان عليهم أن يطلبوا من الناس مثاليةً وتضحيةً أكثر مما طَلَبَ أيُّ نبيّ من أتباعه باسم الدين .

فالإلحاد عاجز ومنطقه أشلّ .. لماذا ؟ لأنه لا يستطيعُ أن يجيب على سؤال بسيط مثل: إذا كنتُ سأحيا اليوم فقط وسأموت غدًا وأتلاشى في التراب إلى الأبد ، بلا قيامة ولا حساب ولا آخرة ، فلم لا أعيش اليوم بدون قيود أو التزامات ما استطعت إلى ذلك سبيلًا..!؟ إنما تبقى المعايير الأخلاقية الموروثة فحسب في وعْي الناس ، وتحافظ

عليها الدولة بدافع الضرورة المحضة ، وفي كلتا الحالتين فإن هذا النظام الأخلاقي الموروث مناقض للأيدلوجية الرسمية ولا يوجد له مكان فيها .

فما بالك بدولة قد ارتضي حُكّامها أن تعيش بلادهم تحت أقدام القوى الأجنبية المعادية لدينها ، ولحريتها وكرامتها الإنسانية ؛ ومن ثم يعملون بكل وسعهم على تنفيذ مخططات القوى الاستعمارية .. في تطويع الشعب المستضعف وتركيعه لمشيئة الأجنبي ، و استئصال المعارضين منهم لهذا القهر والافساد المبرمج، بقوة السيف ، وتكميم الأفواه ، والقتل والتعذيب في السجون والمعتقلات..؟!
هذه للأسف هي الحقيقة التي تجرى في مصر اليوم ، وفى كثير من دول العرب والمسلمين .. مالم تأتى ثورة جديدة تمحو هذا البلاء من جذوره .. وتستعيد للشعب حريته المفقودة وكرامته..! وليس هذا ببعيدٍ عن مشيئة الله وقدرته.

(نشر المقال بجريدة الشعب في ٧إبريل ٢٠١٧/)